المبحث الرابع

دعـوة لحمايـة العقـل

obeikandl.com

obeikandl.com

دعوة لممارسة التشجيع

«ما هو الشيء الذي يجعل الكاتب يواصل رحلته مع القلم، ويستمر في عطائه دون أن يشعر بالتعب والمعاناة، وإذا ما حرم منه فإن إنتاجه الأدبي أو الفكري سيتوقف ويحجم عن المواصلة والاستمرار؟».

هذا السؤال تقدمت به كاتبة إنجليزية شهيرة إلى جموع مواطنيها من الكتّاب والمؤلفين، ورصدت لمن يجيب عنه الإجابة الصحيحة جائزة مالية كبيرة، وقد كانت الجائزة من نصيب الكاتب الذي أجاب عن السؤال قائلا: «إن الشيء الذي له هذه الميزة لدى كل كاتب هو التشجيع».

وفي تعليق الكاتبة الشهيرة على سبب اعتقادها بقوة دور التشجيع في رفد الكاتب بقوة ذاتية تتجدد ساعة بعد ساعة قالت: «لقد صادفتُ من النجاح الشيء الكثير، ورغم ذلك فإن كلمة التشجيع تدفعني لأبذل المزيد، وأواصل أعمالي بهمة لا تعرف النقص، كما أن مهاجمة أعمالي دون الاحتكام إلى معايير موضوعية من النقد الأدبي تصيبني بالإحباط والرغبة في التوقف".

فيما لو أردنا أن نسقط رأي الكاتبة على الواقع فسنجده يوافق الرأي الذي ذهبت إليه، فوجود فيتامين التشجيع يرفع

دافعية المبدع لمواصلة عطائه، كما أن حرمانه من هذا المنشط يشعره في بعض الأحيان بضآلة ما يصنع، أو على أقل تقدير قد يقلل من قيمة ما يقوم به في نظره مما قد ينتج عنه على المدى الطويل تقلُّص في الإبداع أو اختيار التوقف وهجر حقل إبداعه لغير رجعة.

بالعودة لحقل الكتابة الفسيح نلحظ تفاوتاً ملموساً في درجة استيعاب الأقلام التي تصالحت مع الكلمة، وأقامت علاقة صداقة، وميثاق شرف بينها وبين إنتاجها المكتوب، فبينما استوعبت المؤسسات الثقافية، والواجهات الإعلامية العديد من الأقلام المتميزة، حرمت أقلام من ذلك الاهتمام، ولم تنل ما تستحقه من عناية وتشجيع، الأمر الذي أدى بهم إلى التوقف، فالكفُّ عن تقديم المزيد من الأعمال الجيدة نتيجة قلة التشجيع!

ولكن ما بالنا نذهب بعيداً، وننسى الدائرة الأقرب، والأكثر قدرة على القيام بدور المشجع النشط، الذي يهتف لكل عمل أدبي، أو فكري تجود به الأقلام المنتمية لقضايا المجتمع.

إن جمهور المتعلمين كان عليهم واجب القيام بسدِّ الفجوة الكبيرة بين المبدع وبين المؤسسات الإعلامية التي لم تستوعب كافة الطاقات لسبب أو لآخر.

وكان حرياً بجمهور المتعلمين، وعلى الأخص أولئك الذين يؤمنون برسالة الكلمة، ودورها في تجويد الحياة، تقديم رؤية معمقة للجوانب

المختلفة من النشاط الإنساني، غير أنهم - مع الأسف - تأخروا عن القيام بهذا الواجب، وفرّطوا فيه تفريطاً مرعباً.

فلقد تنازل هذا الجمهور طواعية، وبملء الخاطر عن لعب دور المشجع الحريص على رفع معنويات ذوي الأقلام الحرة، واكتفى أغلبهم بالتشجيع في ملاعب كرة القدم، أو بالتصفيق أمام شاشات التلفزيون. وهذا هو التشجيع الوحيد الذي برع فيه أغلب الناس، وأدَّوه بحماس ليس له مثيل.

وحتى لا يفهم أني ضد الرياضة، فإني اكتفي فقط بمطالبة عشر معشار هذه الأعداد الغفيرة ليشجعوا من لديهم مواهب أخرى، لا تقل أهمية عن النشاط الرياضي، ولها ميزتها وخصوصيتها التي ترفعها إلى المقام الأول من حيث فاعليتها في النهوض بواقع المجتمع.

إن نظرة واحدة إلى أكوام الغبار التي تعلو أرفف المكتبات المعنية ببيع الكتب تعطيك الدليل الحي على قلة المشجعين للإنتاج الفكري أو الأدبي في عالمنا العربي.

ولو التفت إلى يمينك أو شمالك في المكتبة ذاتها ورأيت المجلّات من النوع الخفيف الدسَمْ، وإن شئت الدقة من النوع السيئ المذاق، وعلى أغلفتها صورة مطرب أو ممثلة أو فتاة غلاف، وسألت البائع عن حجم زبائنه من قرّاء هذه المجلات

لأجابك بأنهم كثيرون، وبأن تجارته رائجة من بيع هذه المنتجات الإعلامية ذات المقاييس الفضفاضة التي لبست ثوب التغريب، وخلعت ثوب الحياء(١).

كما أن البائع لن ينسى أن يخبرك حين يراك شخصاً متحمساً للمعرفة الحقيقية وليس للأفكار المغشوشة، بأنه لو اكتفى ببيع الكتب ذات المضمون الجيد لانهارت تجارته، ولأغلق مكتبته منذ سنوات.

معنى كل ما سبق أنه ليس هناك مشجِّعون لأعمال النابهين إلا على أضيق نطاق(٢)!!

---

(١) الصحف في قبضة المرأة
http://links.islammemo.cc

(٢) للمزيد: الثقافة في زمن العولمة/ بقلم: حسن مسكين
http://membres.lycos.fr/abedjabri/index.html

obeikandi.com

البطالة الفكرية

هل سمعت عن ظاهرة «التشرنق على الشهادة الجامعية»؟! إنها ظاهرة معروفة لدينا نحن أبناء هذا العالم، وهي تحظى بجمهور غفير من مختلف الطبقات الاجتماعية، والتخصصات الوظيفية التي نال أصحابها يوما ما شهادة التخرج من الجامعة.

وحتى نفهم طبيعة الظاهرة والمناخ العام الذي كان سائداً في تلك البيئة التي أفرزت هذه الحالة السلبية المحزنة، علينا أن نتذكر طريقة تعامل هؤلاء الأفراد أثناء سنوات الدراسة الجامعية مع الكتب والمذكرات التي رافقتهم طيلة الفترة الزمنية التي مكثوا فيها على مقاعد الدراسة.

لقد كانت العلاقة بين الطرفين علاقة ضعيفة، ومتوترة، ولا تحكمها القوانين السائدة بين العلاقات الأكثر ترابطاً ومتانة!! فالتأفُّف من كمية الأوراق التي تصاحب كل مادة دراسية مقرَّرة، والاستياء من البحوث التي يطالب بها أساتذة المواد، هي طقوس يومية مارسها مثل هؤلاء الطلبة كنوع من التعبير عن رأيهم فيما بين أيديهم من واجبات رأوها ثقيلة وباهظة التكاليف!!

لقد أعطت الحياة فرصة لا تقدر بثمن لمئات الآلاف من الطلّاب والطالبات، حين تزامنت مرحلة الشباب مع مرحلة

التخفف من أعباء الحياة، وتوفر الوقت للدراسة والتحصيل العلمي في سنوات المرحلة الجامعية، ولكن كأي شيء ثمين يتبخَّر ويختفي بين يدي من لا يعرف القيمة الحقيقية للشيء الذي يملكه تسربت تلك السنوات، التي كان ينبغي أن تكون خصبة وغنية ليُفضي أمر الطلبة في نهاية تلك الفترة الزمنية إلى نيل معدل دراسي بسيط، لا يدل على الإطلاق على أن ذلك الخرِّيج كانت له جولات موفقة مع الكتاب والمكتبة الجامعية.

وشيئاً فشيئاً نما جدار ثلجي لا يمكن اختراقه بين هؤلاء الأفراد وبين عالم المطالعة.. ولقد تكون الجدار منذ سنوات الطفولة حين اختفى الكتاب من حياة الأسر التي لديها مثل هؤلاء الأفراد، فكان يكبر مع الزمن، واستمر - مع الأسف الشديد - لدى الكثيرين إلى مراحل عمرية متقدمة دون أن يستطيعوا إذابة ذلك الجليد المتكوِّن عبر السنين الطويلة، أو يفعّلوا تلك العلاقة التي يشوبها الهجر والنسيان، ويلون علاقتها باللون الباهت بكل ما له صلة بالبحث والسياحة العلمية!!

ولكون المهارات لا تكتسب إلا من خلال الممارسة والتدريب والتواصل، فقد تفشَّى الجهل مع مرور الزمن بأساليب القراءة الفعَّالة، وبطرق المطالعة الصحيحة، وبات في تصوِّر البعض أن القراءة حكر على العباقرة وحدهم، أو على أقل تقدير حكر على أناس لديهم قدرات ذهنية متقدمة، أو لديهم جينات وراثية سهَّلتْ

لهم اكتساب القدرة على السياحة بين الكتب، والتجوال بين الصفحات والأوراق.

وبهذا الفهم القاصر، والرأي الخاطئ ضاعف هؤلاء من المساحة التي تفصل بينهم وبين العلاقة بالكتاب.

أن التفسير المنطقي لحالة الخصومة مع الكتاب لا يتأتى بهذا الشكل الناقص الذي يغفل السبب المباشر والرئيسي وهو أن هؤلاء الأفراد لم «يتمرنوا» منذ الصغر على مزاولة القراءة، ولم يتدربوا على اقتطاع جزء من أوقاتهم يومياً أو أسبوعياً على أكثر، تقدير ليقلِّبوا صفحات الكتب، ويقوموا برحلة في عقول كتَّابها، ويمارسوا هذه الهواية كعادة سلوكية، وليس كواجب إجباري، أتى عن طريق المدرسة لا غير[١].

ولأن الإنسان عدو ما يجهل، وهو أيضا عدو ما يراه صعباً، وكلا الأمرين وجهان لحالة شعور الإنسان بالعجز أمام تحدٍ يراه

---

(١) في محاولة موفقة قام بها الدكتور بدر محمد ملك والدكتورة لطيفة حسين الكندري لإعادة قراءة التراث وفق رؤية عصرية، وقفت على كتابهما: تراثنا التربوي ننطلق منه ولا ننغلق فيه، الذي لاقى استحساناً من الأوساط العلمية والبحثية في الكويت وخارجها، ولعل مشروع "المهارات الحياتية" الذي بدأ قبل عامين في مدارس الكويت هو ثمرة بحثهما الرصين حول التعليقة التعليمية.
للاستزادة حول التعليقة التعليمية التي تعد الحلقة الغائبة في أنظمتنا التعليمية بالعالم العربي في عصرنا، اقرأ: كتاب تراثنا التربوي. مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع (١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م) الكويت، حولي.
الموقع الالكتروني لمؤلفي الكتاب www.geocities.com

في مخيلته أكبر من أن يتجاوزه ويتخطاه، فقد كان من الطبيعي أن يكون هناك شيء من الخصومة «غير المفتعلة»، ولكنها «خصومة واقعية»، أفضت إليها حالة تعطيل القدرات الذهنية في السير في هذا الاتجاه منذ مرحلة الطفولة، نتيجة غياب وعي الأسرة بأهمية تكوين عادة المطالعة منذ السنوات الأولى للفرد.

وفي حين يعي الجميع أهمية أن يتدرب «اللاعب الرياضي» تدريباً مستمراً متواصلاً لكي يتمكن من تحقيق نتيجة مرضية، يصعب على بعض العقول أن تتصور أن التدرّب على المطالعة منذ الصغر، يهيئ الفرد حين يصبح على أعتاب المرحلة الجامعية ليكون مشروعاً مذهلا لقارئ محترف، ولباحث من الطراز الأول، ولطالب غير عادي ينجز آلاف الصفحات من القراءة والبحث، وهو سعيد مبتسم بالصحبة الفريدة والعلاقة الوثيقة مع عالم المعرفة والبحث.

إنها معادلة صحيحة، وقسمة عادلة، فالبدايات المبكرة في صحبة الكتاب تؤدي إلى نتائج نوعية، والغفلة عن تلك البداية تؤدي إلى حالة «التشرنق على الشهادة الجامعية»[١].

---

(١) حول اكتشاف أكفأ الطرق لتنمية عادات المطالعة الفعالة، اقرأ لبرنيس كلينان كتابها: تنشئة الأطفال على حب القراءة (١٩٩٧م) مكتبة كنوز المعرفة: جدة، ترجمة: د.سعيد محمد بامشوش.

خصومة مبكرة وجهل مركب

لقد تم إسدال الستار على رحلة البحث الإلزامي بمجرَّد استلام الشهادة الجامعية، مع استصدار حكم شخصي بأن المعلومات التي تم جمعها في تلك المرحلة معلومات كافية وكفيلة بأن تغني صاحبها من عناء تقليب الأوراق، أو النظر في المزيد من الكتب!!

وقد نتج عن هذا الموقف السلبي طائفة من النتائج التي أضعفت من فاعلية أصحابها، وقللت من النتائج المترتبة على أعمالهم، نتيجة غياب روح الابتكار والتجديد التي يتمتع بها أولئك الذين يضيفون إلى عقولهم مكاسب معرفية جديدة، ويستثمرون مواردهم الذاتية في مضاعفة رصيدهم من المعلومات القادرة على تحسين أدائهم الوظيفي، والارتقاء بمستوى العمل الذي بين أيديهم.

إن من شأن القارئ الجيِّد أن تتوفر له مع مرور الزمن القدرة على نقد ما يقرأ، واتخاذ موقف خاص من كل ما تقع عليه عيناه من بضاعة فكرية تختلف في مادتها ويتباين مستواها من الجودة العالية إلى المستوى المتوسط أو المنخفض، دون أن يشعر بالعجز عن الحكم عليها وبالتالي الاعتقاد بها، ثم تمثّلها والدفاع عنها كمرحلة نهائية لتلك العلاقة المتفاعلة التي يتحول فيها القارئ بالتدريج من موقف اكتشاف محتوى المادة المقروءة إلى موقف الحكم وإصدار رأي يعبر عن مسئولية تجاهها.

هذه العلاقة الحية وتلك النتائج اللافتة والمرضية يقابلها حالة من التشتت الذهني، والعجز عن اتخاذ مواقف مسؤولة تجاه القضايا العامة، الأمر الذي يضعف فاعلية الفرد غير القارئ ويضعه على هامش الحياة.

وفي حين يمتلك القارئ النشط القدرة على نقد المقروء والمسموع والمرئي يصعب على سواه ممن قطعوا صلتهم مبكراً بالقراءة الجادَّة أن يمارسوا هذا النوع من «النقد الموضوعي المحتكم إلى المعيار»، مما يعرضهم للقبول بالأفكار المعلبة، أو على أقل تقدر يحرمهم من القدرة على حماية أبنائهم من تلك الأفكار.

أضف إلى «انتفاء القدرة على ممارسة النقد»، نتيجة أخرى تتبعها بالضرورة والتجانس، وهي الجهل التام أو شبه التام برموز الحركة الثقافية والنماذج العلمية والفكرية، ممن توفر لديهم نصاب كاف من الوعي والمعرفة، ورشحهم المجتمع بأفراده النابهين، وبهيئاته ومؤسَّساته ليكونوا نخب التأثير والبناء والفعل الإيجابي، الذي يستهدف الإنسان عقلاً وروحاً وعاطفة وضميراً، ليعالج فيه ضعفه وخوفه وقلقه، ويجيبه عن تساؤلاته وحيرته، ويفتح له الطريق للعلم والمعرفة القادرة على أن تنقله من عالم السكون والجمود إلى موقف الفعل والعمل والحركة.

وبما أن هذه الوثبة الحضارية التي ينادي بها رموز الثقافة المسؤولة مادتها الإنسان، وهو هدفها الرئيس، فهي تضع في

اعتبارها أن تزويده بالمعرفة وتسليمه مفاتيح الحكم على الأفكار والآراء ما هو إلا مرحلة أولى من مراحل السير به نحو تحقيق مشروع النهضة الشاملة، التي ترتكز على الإنسان، وتنطلق من خلاله.

وحين تغيب معرفة أسماء الرموز العلمية والثقافية عن سواد الأمة فمن الصعب توقّع حدوث النهضة على يد الأفراد الذين خاصموا المعرفة بمعناها الواسع، وكرهوا أن يتحملوا مسؤولية الاندماج مع أفكار الرواد والتجاوب مع ما يطرحون ويقدمون من رؤى ومفاهيم تكفي لتضع الأمة في الطريق الصحيح.

وإذا كان لكل فعل نهضوي جنوده وحماته، وبنَّائيه، فإن غياب تلك الجموع عن أداء هذا الدور، والتشرنق على معلومات قديمة مستهلكة هو انتحار أمة، ووأد للحقيقة، وإهدار للزمن الجميل[(١)]!!

---

(١) للوقوف على أحدث التجارب العالمية في بناء العقول اقرأ كتاب: تنمية الموارد البشرية في اقتصاد مبني على المعرفة، مركز الإمارات للبحوث و الدراسات الاجتماعية، ٢٠٠٤ م.

هل جَنَت الثقافة السمعية على أفراد المجتمع؟

هل جنت الثقافة السمعية على أفراد مجتمعنا، وهل نطالب المولعين بتعاطي هذا النوع من الثقافة بأن يتريَّثوا ولا يفرحوا كثيراً بجنْيِهم، فلا زالوا على الشاطئ ولم يبحروا في اليم بعد؟

وفي سؤالٍ موازٍ: هل يكفي تكثير سواد أنشطة المحافل الثقافية، وزيادة عدد مرتاديها لاتخاذه مؤشراً على دنو ربيع علمي قادم يجود فيه العامة بوقتهم، وتسخو لأجله جيوبهم، وتسمو به نفوسهم عن الصغائر والنقائص؟

وهل تمطر أيامنا القادمة بزخّات تهبها النفوس التي فاضت بالحكمة، وشرفت بالتحليق في سماء الفضيلة وعالم المثل والأخلاق؟!!

وهل يصدّر العلم إلا القيم؟ وهل يروّج إلا للمكارم؟ وهل يدعو إلا لكل ما هو عظيم وجدير بعزة الإنسان وكرامته حتى لا نراهن عليه كخيار لبلوغ القمة وذخيرة للأيام القادمة؟

تفتح هذه الأسئلة جراحاً أكثر مما تنبئ بأفراح، والسبب أن القصور والعجز عن استكمال ما يتم به بناء الذات الواعية خلل لم

يتم معالجته واستدراكه إلا في حدود لا تفي بالطموحات، ما يدفعنا للتساؤل عن سبب تراجع الهمم وقصورها عن استكمال شروط التغيير نحو أداء أكثر تلاحماً بأهداف المجتمع وتطلعاته.

لقد كان من المنتظر أن يتم نمو تراكمي للخبرة في التعامل مع المعرفة من منظور البحث عن أفضل البدائل، لاستكمال المشاريع الشخصية والمجتمعية الهادفة إلى التحول نحو الأفضل والأكمل.

كان منتظراً أن تلعب الخبرة والزمن فعلهما الصحيح في ذهنية المتلقي، فيرتقي درجات متتالية في المعرفة، تؤهله مع مرور الوقت ليؤثر في غيره وينفع أهله ووطنه.

لقد كانت العقود الأخيرة كافية لتكون قرينة على نمو الخبرة، وتجويد الاختيار لأصناف المعارف المقدر لها أن تضيف إلى الرصيد الشخصي الذي تجري تنميته تبعاً لمرور الأيام وتواترها.

كان ذلك كله منتظراً وكان طبيعياً، لكن النتائج على الأرض لم تصدق تلك التوقعات بل جاءت مخيبة للآمال، والقرائن والأدلة هي من الكثرة والتواتر بحيث يستدعي حصرها إعادة قراءة الواقع من جديد.

من الأمثلة الشائعة على الفشل في امتلاك خبرة كافية لتجويد الاختيارات في الوسائط المعرفية، ناهيك عن العجز عن تطويرها في اختيار نوعية المعلومات المطروقة ملازمة أعراض "صداع المطالعة" للأفراد المولعين بالاستماع إلى المحاضرات المسجّلة على الشرائط الصوتية، مع انعدام قدرتهم على القراءة

المنتظمة، ما يعني الامتناع عن التحول من الوسائط البصرية والسمعية في تلقي المعرفة إلى الكتاب المقروء، ذلك الوسيط المثالي للمعرفة عبر الزمن، بل هو رئيس الوسائط مهما جادل المترخِّصون، وماري الواهمون.

وإذ أتجاوز مسرعة استعراض الفوارق الكبرى ما بين التعلم عن طريق الاستماع والتعلم عن طريق النظر والقراءة، معتمدة على خلفية القارئ في هذا الجانب، أو ربما محفِّزة له ليبحث ويقف على الآلية التي يعمل بها الدماغ أثناء استقباله للكلمة المسموعة والأخرى المقروءة، وما يترتب على تلك الآلية من نتائج حاسمة وضعت القراءة في المستوى الأول من حيث كفاءتها في صياغة الشخصية العلمية، وقدرتها على تحقيق أهداف التعلم والتنمية المعرفية الصحيحة؛ أتوقف أمام نقطة ضعف أخرى ترتبط بفكرة الاكتفاء بالثقافة السمعية من زاوية النظر إلى مقدار ما لدينا من إنتاج ثقافي سمعي، وهل يكفي في مجمله وعلى حالته الراهنة ليغني أي فرد عن المطالعة في الكتب، أو التصفح عبر النشر اللا ورقي، إما من خلال الشبكة الالكترونية أو الأشرطة المدمجة؟

إن المكتبة السمعية في عالمنا العربي لا زالت في بداياتها، وتحتاج إلى تنويع موضوعاتها بشكل كبير، مما يؤكد أهمية اللجوء إلى المطالعة بشكلها التقليدي أو بشكلها الحديث المبتكر.

ومن نافلة القول أن نؤكد على الخدمات الجليلة التي يقدمها النشر اللا ورقي للجمهور، ومَنْ ظن أن هذا النوع من النشر قد سحب البساط من تحت الكتاب فقد اخطأ، حيث إن ما بين الكتاب بشكله التقليدي وبين الوسائط الالكترونية من الترابط العضوي ما يمنع تصوّر حدوث التصادم الذي يحذّر منه المتسرعون، وما التصارع المفتعل بين الكتاب والوسائط الالكترونية إلا زوبعة في فنجان، والدليل على ذلك أن من يقرؤون الكتب - رغم كونهم أول من سارع إلى استثمار الوسائط الاتصالية الحديثة لا مللاً أو هجراً للكتاب، ولكن توسيعاً لدائرة المعرفة، ومضاعفة لثمرات القراءة - لا زال الكتاب هو خيارهم الأول.

بل إن ما يطمئن المتوجّسين على مستقبل الكتاب الورقي هو ردة الفعل الإيجابية التي قام بها عديد ممن دخلوا الشبكة العنكبوتية بدافع الفضول، وخرجوا منها و الرغبة تملأهم لقراءة بعض الكتب المعلن عنها في المواقع المختلفة، مما يؤكد توقعات المتفائلين لمستقبل الكتاب في ظل الانفجار المعرفي الذي ترعاه الوسائط الاتصالية الحديثة.

والسؤال الذي يتجدد: متى نتعلم كيف نسمي الأشياء بمسمياتها؟ ومتى نُلزم أنفسنا بأفضل الخيارات؟!!

التغذية الراجعة من الجمهور

التغذية الراجعة من الجمهور المتلقّي للخدمة التثقيفية التي تتنوع واجهاتها وتختلف وسائطها الاتصالية هي جزء لا يتجزأ من المشهد الثقافي لأي مجتمع من المجتمعات.

ومستوى التفاعل ما بين الوسائط الناقلة للثقافة وبين الجمهور يعكس درجة الوعي الجماهيري، ومدى النمو المعرفي الذي وصل إليه المجتمع.

غير أن من الظلم للحقيقة أن نطلق أحكاما على أفراد المجتمع، دون أن تعود بنا الذاكرة إلى مجمل الملاحظات وكم الانتقادات الموضوعية التي تناولتها أقلام حريصة على مستقبل المعرفة، عبر وسائل الاتصال على اختلافها وتنوعها، والتي يعنيها بشكل لافت أن يطرأ تحسن ملحوظ على نوعية الخدمة الثقافية المقدمة في بلداننا.

من أقرب الإشارات على وجود قصور في نوعية التوجيه الحالي تكريس الأداء الروتيني في المؤسسات الثقافية والتي أفرزت بدورها جملة من النتائج غير السارة، من بينها مرض الاكتفاء الذاتي بما تيسر من معلومات قديمة، نتيجة الدوران الأسطوري في فلك تلك الموضوعات، وكأن العلم قد نفذ ما في

جرابه، وفرغت خزائنه، فليس لديه ما يضيف إلى السامع أو يمتع الباحث والمهتم.

ونحن لا نرى مبرراً للمراوحة أمام موضوعات محددة، تمت مناقشتها باستفاضة منذ مدَّة طويلة، ولم تعد ثمة حاجة لتقديمها من جديد، إلا إذا كان ثمة إضافة حقيقية للموضوع ذاته تسوِّغ الحديث عنه من جديد.

من تلك الموضوعات التي كثرت حولها الحواشي والشروح، في حين أنها من البساطة والوضوح على النحو الذي لا يستدعي تلك الإطالة المبالغ بها؛ موضوع تكريم الإسلام للمرأة، ومنحه لحقوقها في مقابل الجور الذي تلقاه نساء الغرب.

إن مثل هذا الطرح كان جديداً منذ أكثر من عشرين عاماً، حيث بدأت الحركة التصحيحية في تلك الفترة لجملة من المفاهيم الخاطئة التي صنعها الجهل، ووجدت لها مرتعاً خصباً في العقول التي حرمت من التعليم والمعرفة.

وقد كان من الطبيعي أن تكون أولوية الأنشطة الفكرية مرتبطة بتصحيح المفاهيم المغلوطة، ومعنية بتخليص ذهنية الفرد من المفاهيم المبتورة، أمَا وقد انتشر التعليم وتم تصحيح الصورة المائلة، فقد كان من المنتظر أن تشهد الحياة الفكرية نمواً تصاعدياً للموضوعات المطروقة، حتى يمكن تقديم إجابات مفصّلة

لكمّ الأسئلة الجديدة التي يفرزها النمو الطبيعي للمجتمعات، ويفرضها الحراك الاجتماعي الداخلي الذي تزامن مع التغيرات الدولية، والظروف المستجدة على الساحة الفكرية في العالم.

لقد كان إعادة تقديم الإسلام لأبنائه عبر قنطرة الدفاع عنه في قضايا حقوق الإنسان المسلم؛ مسألة فائقة القيمة والأثر أما وبعد استيعاب السواد الأعظم لهذه الحقائق فإن الاستمرار في تناولها يعد علامة على عدم القدرة على مواكبة التطور المادي المذهل الذي غطى على أفق الحياة الاجتماعية، وفرض بدوره جملة من التحديات تختلف كليةً عن تحديات عقود خلت، وأصبحت في عداد الذكريات.

هذا القصور عن الاستجابة للمطالب العقلية الحيوية الجديدة هو مقتل الأنشطة الثقافية، وكعب اخيل البرامج التوجيهية التي شاخت قبل الأوان، وأصبحت بحاجة إلى جهود إنقاذ لإعادة شبابها إليها، والحيلولة دون تحولها إلى بؤر تَنْحتُ في عقل المتلقي، وتأتي على مراكز القوة لديه وبذور الإشعاع التي يملك قدراً منها، فتحرقها أو تعيقها عن الوصول إلى مستوى يؤهلها لاستلام المبادرة في اختيار الموضوعات، والقدرة على تناولها بالنقد المنهجي، والتحليل المبني على رؤية ممتدة وأفق راسخ.

إن ثمة علاقة تبادلية بين المرسل والمستقبل، وبحسب طبيعة الرسالة التي يقرأها من تستهدفه يكون الرد والجواب، الأمر الذي

يفسّر ذلك الفشل في فهم الواقع وبناء علاقة يحميها العلم، ويبنيها التفاهم مع الحياة العصرية التي كثر النقد حول إفرازاتها وغابت عنها الحلول العملية.

لقد كان أحد مفاتيح الحلّ للانفصام النّكَدُ الذي تعاني منه الشخصية المعاصرة بين ما هو كائن وما يراد له أن يكون، بيد الوسائط الاتصالية الراعية للأنشطة التثقيفية، والتي أخلّت بدورها وبالتزامها الأدبي والحضاري في رفع سقف المفاهيم وإجراء مصالحة واعية بين المسلم والحياة المعاصرة، دون الوقوع في خندق الصراع المفتعل ما بين الدين والدنيا، والعبادة والعمل، والذي عُمل قصداً لتفتيت الإرادة، وتغييب المسلم عن أدواره المتميزة، التي ما زالت تنتظره منذ أمد، وما زال غافلاً عنها، جاهلاً بكيفية أدائها على الوجه المطلوب!!

السلطة المعنوية للكتاب

أصبحت معارض الكتب السنوية واحدة من أهم التجارب الهادفة للترويج للكتاب كأداة قادرة على إحداث التغيير المطلوب في الأفراد والشعوب.

ولمعارض الكتب أهداف سامية، منها إشاعة أجواء ثقافية غنية تعيد إلى الذاكرة تلك العصور الخصبة التي احتفت بالعلم والعلماء، واحتضنت إبداعات ساهمت في رفد العالم بكل ما هو جديد ونافع، في مختلف حقول العلم والمعرفة.

ولعل الشيء الذي يستحق البحث هو تحديد الأسس والعناصر المكوّنة للمثقف الجادّ القادر على نقد وتحديد المادة المقروءة المؤهلة للارتقاء به، فكراً وسلوكاً على المدى البعيد.

إن توفر الحسّ الناقد لدى القارئ المعني باقتناء الكتب يعد واحداً من أكبر عناصر الحماية لعقل القارئ وقلبه، من الوقوع تحت تأثير كتابات هزيلة لا تستحق العناء أو صرف جزء من الوقت للوقوف عليها، وفقدان القدرة على النقد والتمحيص هو كعب اخيل القارئ الذي ستزل أقدامه في بحر رمال الكتابة غير المحتكمة للمنطق والمعيار والمفتقرة لألَقِ الكاتب وتوقد قريحته[1].

---

(١) حوى كتاب "كيف تقرأ كتاباً" لمورتيمر آدلر وتشارلز فان دورن (١٩٩٥م) – والذي ترجمه طلال الحمصي، ونشرته الدار العربية للعلوم – تفصيلاً مطولاً للقراءة النقدية بصفاتها ومراحلها وهيئتها ننصح بالرجوع إليه.

هذه القدرة على السياحة المعرفية المدعومة بمناعة عقلية شديدة الفاعلية لا يحظى بها الفرد العادي بدون مقدمات وظروف خاصة.

ولا تمنح له بدون تهيئة وإعداد مسبق ومدروس، ينتقل خلاله من مرحلة المعرفة المجرّدة بعناوين وأسماء لا دلالة لها في ذهنه؛ إلى طور المعرفة الواعية بمدلولات تلك العناوين والموضوعات، وبمقاصدها وجَدَارَتها للاعتماد والقبول، أو النفي والرفض.

ولعل من فضول القول التذكير بأن إعداد القارئ الفعّال هو طوق النجاة من انجراف الأفراد نحو كتابات سطحية تؤذي عقولهم، وتضر بمناعاتهم النفسية التي تتدهور تبعاً لانخفاض القدرة على الحكم والتقييم.

كما يعد توفر قدر مناسب من التخطيط الشامل لتربية ذوق الفرد وتهذيب وجدانه ورفع سقف اهتماماته مسألة محورية، يبنى على وجودها صياغة مثل هذا الفرد وينتج عن فقدانها انحسار القدرة على الاختيار بين عروض المواد المكتوبة، التي تتفاوت قيمتها تفاوتاً هائلاً ينعكس بعد ذلك على مفاهيم القرّاء ورؤاهم للحياة ودرجة الوعي المتوفّرة لديهم.

جزماً يُعدُّ إعداد القارئ الكفء مسألة حياة أو موت للأمم، ومن المحزن أن نتفق على أسس إعداد الأطباء والمهندسين، ونجهل أسس بناء القرّاء الفاعلين[1].

---

(١) للاستزادة طالع: الرفاعي، أنس وسالم، محمد تسريع القراءة وتنمية الاستيعاب، (١٤٢٠، ١٩٩٩)، دار الفكر، دمشق سوريا.

الوعي المفقود

ترى نُسرف في أحلامنا ونبالغ في مطالبنا حين نلحُّ على القارئ العربي أن يحسن اختياراته لما يقرأ، وأن يكون جاداً وقارئاً فعّالاً يحترم عقله ووقته، ويستعلي على الإسفاف الفكري، والتناول السطحي الذي تقدمه بعض الأقلام الهزيلة، فلا يطالع إلا ما يثري حياته العقلية، ويرتقي بمفاهيمه، ويساعده على اكتساب المزيد من الخبرة النظرية والمعرفية التي تصقل شخصيته، وتدفعه لتجويد أدائه؟.

ولقد مرّت عقود عدة والمناداة بالعودة إلى الكتاب الجاد قائمة ومستمرة، وكم تغنت أصوات صادقة بفردوس القراءة المفقود، وكم بكت على أطلال الأيام الخالدة حيث كانت مكتبة الصاحب بن عباد تحمل على ثمانين بعيراً، وكانت مكتبات بغداد شمساً أشرقت من جنباتها النور، وأضاءت ما بين الشرق والغرب!!

وكم من زفرات حارقة خرجت من صدور أهل الفكر والثقافة على ذلك الزمن الخصب الذي دفع الأمراء إلى وزن الكتب بالذهب[1].

---

(١) للمزيد طالع: قراءة نقدية لتقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٢/ عوني فرسخ.

http://www.arabnewal.com

وكم أسفوا على حلقات العلم في مساجد العالم الإسلامي حيث الجامعة المفتوحة التي تربت على مناهجها أمة بأكملها عربها وعجمها.

لقد كان المجتمع في تلك القرون ناضجاً بما فيه الكفاية، واعيا بما يؤهله للتلاحم مع أبجديات النهوض وقواعد التأثير الايجابي في حركة الحياة الإنسانية بشكل عام. وكان معافىً من التّرَهّل، وأمراض الترف وآفات الحياة الناعسة، كما كان محصناً من الداخل ضد الانبهار بتقاليد الشعوب التي اختلطوا بها.

واليوم لم يعد المجتمع صالحاً كما كان في السابق!! لم يعد دافعاً للعلم ومشجعاً له، بل تحول إلى الموقف المضاد وأعلن حربه السافرة على الفكر والثقافة وأصبح - مع الأسف البالغ - أول المناهضين لأغلب محاولات ملء الفراغ الرهيب الذي يعاني منه العقل المسلم.

لقد تحول المجتمع من حليف مخلص إلى الأفكار الفعالة إلى خصم لدود لا يبالي كيفما كانت ضربته التالية لمجمل مشاريع التنمية البشرية والتطوير المعرفي.

كان من الطبيعي إزاء هذه الحرب الباردة غير المتكافئة، أن تُفرز أنماطٌ سلوكية تخرجت من مدرسة الركاكة والتسطيح، وشربت من المصادر الملوثة الضارة بالصحة العقلية التي أبدعتها

قنوات التأثير الإعلامي، بعد أن قامت بدور الوسيط غير المؤتمن بين فِرَق أهل الفن والدعاية وبين الجمهور العريض من أبناء هذه الأمة المستهدفة.

لقد جعلت هذه الوساطة السيئة السمعة من الإنسان كائناً فاقداً للقدرة على تحديد خياراته الصحيحة نتيجة الشحٍّ في مصادر التغذية العقلية بالمجتمع، ونضوب الأفكار الهادفة من حوله.

ولأن الإنسان ابن بيئته ومرآة مجتمعه، فمن الطبيعي أن تكون التغذية الراجعة على نفس الشاكلة والهيئة، فالتسطيح الإعلامي أفرز نماذج استنسخت الأفكار والرموز التي ظهرت على الشاشة، وتقمصت نفس الدور وأعادته إلى الواقع لكي تكتمل حلقات مسلسل «الغياب عن الوعي»[1]، وتغدو الممارسات السلبية والظواهر الاجتماعية مسائل مقبولة، وعادية وليس فيها ما يستوجب الاعتراض أو النكير، بما يقطع الشك باليقين أن زمن الاختيارات الجيدة قد ولّى وانقضى، وأن البحث عن القارئ النهم الشغوف ببناء ذاته أصبح اليوم أندر من الكبريت الأحمر!! وما على الأقلام التي مازالت تنادي بالنهوض الثقافي إلا أن تقلل من حماسها!! فالآذان في صمم، والعقول لاهية عن سماع هذه الأهازيج القديمة، بعد أن سحرتها الشاشة الفضية وأحاديثها الشجيّة!!

---

(١) للوقوف على ملامح الشخصية المعاصرة طالع: الشخصية العربية في عالم متغير/ أ. د.محمد أحمد النابلسي.

http://psychiatre-naboulsi.com

تطبيقات على سلبية الجمهور

سلبية الأفراد هي الوجه الأكثر تعبيراً عن الكارثة التي حلّت بالعقول نتيجة غياب النصوص التعليمية التي تغذي في الفرد شعوره بذاته، وتربيه على احترام عقله والدفاع عن محاولات تشويهه أو تقزيمه، أو حرمانه من المعلومات التي يزداد بها فهماً لواقعه وتواصلاً معه.

هذه السلبية التي نعاني منها كان يمكن تفاديها فيما لو خُلّيَ بين الفرد وبين المعرفة الهادفة، وفيما لو التفت التربويون بجدّ إلى خطورة استبعاد مصادر الإشعاع والتأثير من أمام الأجيال الصاعدة، والاكتفاء بسرد أسماء النخب المثقفة التي أثّرت في تطوِّر الفكر المعاصر وساهمت في ترشيد العقل المسلم.

ولأن الفتات لا يشبع الجائع، ولا يشكل وجبة غنية بالفائدة، فكذلك هو حال أفراد المجتمع مع المناهج الدراسية التي قدمت لهم الفتات ومنعتهم من الوجبات المتنوعة التي كانت العقول بأمسّ الحاجة إليها، لتنمو وتتفتح، وتمتلك الرؤية الواسعة التي ترى من خلالها الأشياء على حقيقتها وتزنها بالميزان الصحيح[1].

(١) لمعرفة العوامل المؤثرة في التعلم ننصح بمطالعة: العوامل النفسية المؤثرة في التعلم.. كيف نتحكم بها؟

إن الفتات من العلم لن يقدم لنا إلا شخصية مفتّتة تنظر إلى الأمور بشكل جزئي، وترهقها المحاولات البسيطة التي تبذلها للوصول إلى الحقائق ونبش جذورها وربط العلل بنتائجها، ونحن مع الأسف الشديد ابتُلينا بمناهج عرَّفتنا بأسماء عدد من رموز التنوير، وأحجمت عن تعليمنا أصول أفكارهم وجوهر آرائهم، مما أفقدنا التواصل مع خطابهم الفكري، ومنعنا من اكتشاف قيمة رسائلهم التنويرية.

ومن الإسلامي إلى العالمي يتكرر أسلوب إعطاء جرعات رمزية من المعلومات التي لا تكفي لتعميق الوعي وتكثيف المعرفة.

فماذا يعرف أبناؤنا وإخوتنا عن أفلاطون ومدينته الخالدة؟ وماذا يعرفون عن جون لوك وعقده الاجتماعي؟ وكيف يتسنى لهم أن يستوعبوا خطوات الآخر نحو نيل حرياته ومدى مطابقة أو مفارقة تلك الخطوات مع واقعنا؟!!

إننا مع الأسف الشديد نجهل نظرياً كيف بنى الآخرون مجتمعاتهم على أسس المساواة والعدالة الاجتماعية، ونجهل عملياً كيف نعوّد أنفسنا على التعبير عن آرائنا ولو في أبسط نطاق، كما تغِيب عن كثير منا معرفة الكيفية التي تعوّد الأبناء على التعبير عن آرائهم والتمسك بقناعاتهم، مهما كانت الظروف والأحوال!!

جملةً من المفاهيم الحضارية المغيّبة، تصاحبها جملة من السلوكيات غير المنتظمة تدفعنا لنطالب بتصحيح تلك الأوضاع

المائلة، وتهيئة الأجواء المدرسية والجامعية لتلقي قيم الحرية ودلالاتها ومجالاتها الفكرية والسياسية والتربوية والمجتمعية.

هذا إذا كنا جادّين في تنظيم إيقاع سلوك الأفراد بما يتناسب مع مطالب الدور المحوري الذي يراد منهم أن يلعبوه كآباء ومربين وعناصر تنتمي إلى أمتها وأوطانها، وأي محاولة للالتفاف على هذا المطلب هو خيار ضعيف لهمم واهنة، وعقول لا تنظر أبعد من أخماص أقدامها.

books4all.net

تقييم عام لأنشطتنا الثقافية

من الموضوعات الرئيسية التي لا يمكن إشاحة الوجه عنها ونحن نتحدث عن تكوين مجتمع المعرفة موضوع الأنشطة الثقافية التي تغذي شريان الوعي، وترْفُدُ مسيرة الحركة الناهضة بأسباب الاستمرار والتميُّز.

هذا الجناح الذي يعمل عمل المولّد للأفكار المعرفية الخلّاقة، لدى العناصر المؤهلة للتجديد والإبداع، كما يعمل على نشر الثقافة الصحيحة لدى الشرائح المتعلمة في الوسط الاجتماعي هو ما نودُّ الوقوف أمامه، وإجراء محاولة لتقويم النوعية السائدة من الأنشطة الثقافية الطابع، التي نرصدها في المجتمع والتي أصبحت بطريقة أو بأخرى نمطية الأداء، ومألوفة الصورة والمحتوى على نحو ينذر بالتوقف بمستوى الخدمة الثقافية المقدمة للجمهور عند المستوى المتوسط، إن لم تكن دون ذلك.

يؤدِّي الأداء المذكور إلى حدوث ركود فكري في الأوساط التي كانت مؤهّلة للنمو والتطور، غير أن الجهل بنوعية الأنشطة المناسبة، وبالبرامج الإنمائية الجديرة بالعرض تسبب في شيوع الركود الذي نعرض له، والمراوحة عند مرحلة معينة لا تفي قطعاً باحتياجات العصر الذي نعيش فيه، ولا تستطيع أن ترقى

بالشخصية الملتصقة بمثل هذا النوع من الأداء والذي أصبح عادياً نتيجة التكرار الممل، والدوران المستمر في ذات الموضوعات دون ظهور مؤشرات على قرب الخروج من تلك الدائرة، أو توسيع قطرها على أقل تقدير.

والأمثلة على ما نقول كثيرة ومثيرة وقادرة على أن تحدث صدمة لدى الغيورين على عقول الأمة من أن تصاب بالصدأ والتآكل، جرّاء الإعادة والتكرار لموضوعات عُرفت لدى العامة والخاصة، وبات الإصرار على الخوض فيها عملاً مملاً، وخياراً مخلاً بالرسالة التنويرية التي يجب أن تضطلع بها سائر المرافق الحيوية، والواجهات العاملة على نشر رسالة الكلمة والترويج للقيم الحضارية.

من تلك الموضوعات المكررة (حقوق الزوج- حقوق الزوجة - مكانة المرأة في الإسلام- مكانة العلم في الإسلام- سماحة الإسلام - شبهات حول الإسلام) وقضايا أخرى كثيرة تنحى مجتمعة للدفاع عن العقيدة الإسلامية في داخل المجتمع المسلم، وكأن الفرد المسلم ما زال جاهلاً بقوة الدفع الذاتي للإسلام، وبالقدرة الهائلة له على صناعة الحياة الكاملة والعظيمة لأبنائه المنتسبين إليه.

إن استمرار الحديث في مثل هذه الموضوعات مع شيوع العلم بها هو دليل على القصور عن إدراك أولويات البناء في المرحلة

الحالية، كما يعد رسالة واضحة من قبل من يدورون في هذا الفلك، بأنه لم يعد لديهم ما يضيفونه في موضوع ترشيد العقل المسلم، وتزويده بمفاتيح البناء و التغيير.

ومن الاستهانة بالدور التوجيهي المسند إلى كل من لديه قدرة على تنظيم برامج ثقافية ذات طابع جماهيري، أن يظل منطق الدفاع عن الهوية والمعتقد هو الخطاب الوحيد الذي تُحشد لأجله الجهود والإمكانات، حيث ثمة موضوعات تالية لا بد من عرضها بوضوح، وتناولها بمصداقية علمية ينبغي التصدي لها كما أن إسقاطها من دائرة البحث، يكرِّسُ الانطباع السلبي عن واقع الأنشطة الثقافية الذي ترسخ في أذهان المثقّفين المتعمقين في قراءة الواقع، والذين لديهم قائمة أولويات مختلفة حول الموضوعات الأكثر جدارة بالعرض والبيان.

ولكي يتسنى للقارئ فهم معادلة التأثير المعرفي الأمثل، التي نراهن على قدرتها على تحريك الركود الثقافي المتفشّي في الأوساط الثقافية التي وصفنا أداءها آنفاً، نعود بالذاكرة إلى أسس تعليم العربية للطفل الصغير.

إذ يمر الدارس الصغير بسلسلة من الإجراءات التنظيمية في السلم التعليمي، ينتقل من خلالها من مرحلة الرياض إلى المرحلة التأسيسية الأولى، فالثانية فالثالثة، إلى أن يصل إلى مستوى الاحتراف في ممارسة القراءة والكتابة.

وفي أثناء ذلك التسلسل المنهجي المحكم يتم إدخال قدْر من المعارف التي تنمو طردياً مع الزمن، من أجل أن يهضم المعلومات المتاحة دون صعوبة أو معاناة.

وما نشير إليه من حاجة ماسّة للبحث عن مخرج للنمطية السائدة في الأنشطة الثقافية يهدف إلى محو الأمية الحضارية عن أفراد المجتمع، كما يهدف إلى نمو مؤشر الوعي تبعاً لدورة الزمن، التي يستحيل تجاهلها والغفلة عن فرضها لتحديات جديدة في كل لحظة وثانية.

محو الأمية الحضارية يحتاج إلى عدة معطيات، وقائمة من المشاريع والبرامج الطموحة، وثقة شديدة بالنفس، ونظرة متفائلة إلى المستقبل، واحترام لعقل المتلقي الذي يجب عدم التعامل معه على أنه جهاز عديم الفائدة.

تكوين مجتمع المعرفة

تكوين مجتمع المعرفة هل هو مسؤولية الدولة وحدها؟ أم هو مسؤولية واجهات معينة؟ أم هو مسؤولية نخب مثقفة؟ أم هو نتاج جهود مشتركة لأكثر من جهة تعمل مجتمعة لإرساء مجتمع المعرفة، نتيجة لتوفر جملة من الشروط الموضوعية والمعطيات المعرفية التي تزخر بها الذاكرة الجماعية في أي مجتمع من المجتمعات؟

في حقيقة الأمر يحتاج تكوين مجتمع المعرفة إلى جملة من المطالب من بينها تبني الحكومة والنخب المثقفة لهذا المطلب، واتفاق الطرفين على أهمية نمو الوعي الاجتماعي، وحدوث طفرة معرفية في الحياة الاجتماعية تدفع الأفراد لاتخاذ مواقف إيجابية في مختلف القضايا، وتتيح لكل واحد منهم القدرة على المحافظة على مكتسباته الشخصية، وعلى نجاحاته السابقة في ظل الرؤية النافذة، والأفق الممتد الذي يرنو إليه والذي تهيّأ له من خلال النمو المستمر، والتواصل الحقيقي مع المعطيات المعرفية يوماً بعد يوم، ومرحلة تلو مرحلة.

ومن المحزن حقاً أن يظن بعض الناس أن تكوين مجتمع المعرفة هو مسألة ترفية أكثر من كونه قضية أمة بأكملها، إما أن تأخذ بأسباب النهضة الحضارية فتحسّن قيادة ذاتها، وتعيد

تقديم نفسها للعالم بصورة تليق بها، وإما أن تفقد القدرة على الالتزام بشروط النهوض الحضاري، وحينها تغرق في شبر ماء، وتصبح صيداً سهلاً لكلّ صياد محترف، وأخشى أن أقول هاوٍ يضرب في كل اتجاه، فإذا ما وقعنا في مرمى صيده لم نُبْدِ أية مقاومة، واستسلمنا لقدرنا الذي اخترناه بأنفسنا في فترة غاب فيها الضمير، ونام فيها العقل، واختلطت فيها الأمور على نحو مؤسف.

وإذا كان احتراف النجاح هو النتيجة الحتمية للجهود المضنية التي يبذلها مجتمع المعرفة، فإن احتراف الفشل والسير بالمقلوب يصبح النتيجة الطبيعية للمجتمع الفاقد للقدرة على الحزم وضبط النفس، والأخذ بأسباب القوة، والتي من أهمها الاتصال العاطفي والعقلي مع قيم التعلم المستمر، ومبادئ الالتزام بالسّير في درب العلم دوناً عن سائر الدروب، والخطوط المبعثرة لجهود الأمة والممزِّقة لوحدة صفها دون مواربة.

ومما لا تخطئه عين البصيرة ولا يتخطاه نظر العقل أن المجتمع الذي لا تتوفر فيه شروط مجتمع المعرفة يصبح كل فرد فيه معلماً، وكل عضو فيه فيلسوفاً، وكل صرعة فيه نموذجاً يستحق الحمد والتقدير!!

قد توجد عناصر قوية ومتميزة في المجتمع الزاهد بقيم التعلّم المستمر، لكن هذه العناصر يظل دورها محدوداً ولا يرقى ليتحول لقوة ضغط تمنع استفحال الرغبة الجانحة في مواصلة

النوم والاسترخاء الغير مؤقت بزمن، ما أدى لاتهامنا بالتفريط بقيم التفوق ومقوّمات الحضارة، تلك التهمة التي يوجد ألف دليل على صحتها، مع الأسف الشديد!!

وجود النخب المثقفة إذن لا يكفي وحده لصياغة مجتمع معافىً، وجلب مناخ معرفي صحي ينعش الحياة الفكرية للمجتمع بأسره، وإنما لا بد أن تتدخل الدولة ممثلة في وزاراتها ومؤسساتها المختلفة لتنجز هذه المهمة وتقوم بهذا الجهد.

والمثقف في هذه المرحلة هو الشخص الذي يجني ثمار تعبه ونتائج جهوده المسبقة.

حيث إن البنية المعرفية التحتية لأي مجتمع من المجتمعات تصنعها النخب الفكرية (كمرحلة تحضيرية)، تسبق الانتقال إلى مجتمع المعرفة وتمهد لها، وكلما كان دور المثقف أكثر ظهوراً وأداؤه أكثر قوة، وكلما زاد عدد الرموز الفاعلة أسهم ذلك دون شك في تسريع الانتقال إلى مجتمع المعرفة، وساعد على تقليص المسافة الفاصلة ما بين تحسين الأداء المجتمعي للأدوار المناطة بالأفراد وما بين الصورة الماثلة التي يعكسها الأداء غير المنظم للمجتمع الذي لا ترقى به أدواته لبلوغ الأفق الذي نتحدث عنه.

فاعلية المثقف إذن هي خط أحمر لكل مجتمع يريد أو يراد له أن ينهض ويستقيم.

الهاربون من القراءة الواعية

في أحيان كثيرة يمارس الفرد بشكل آلي أنواعاً من السلوك السلبي دون أن يكون واعياً لخطورة ما يفعل، ظنّاً منه بأنه يحسن بذلك صنعاً، ويترفق بنفسه التي تطالبه بأن لا يكلفها ما لا تطيق.

وعادة ما تسعف مثل هذا الفرد الملتحف بلحاف الكسل لغة تبريرية ينافح بها عن اختياراته الضعيفة، ويحتمي خلفها من المتطفّلين بنظره، الذين قد يحاولون لفت انتباهه إلى أهمية مراجعة الذات، واستدراك جوانب القصور في شخصيته.

يَحْضُرني في هذا السياق صورة امرأة ناضجة كانت من بين الجمهور في محاضرة قدمتها بعنوان: (مقومات التربية الإيجابية)، وكان مما عرّجت عليه أثناء الحديث بيان أهمية التزام الأبوين بالاستمرار في التنمية المعرفية الذاتية كي تتسع دائرة الفهم الخاصة بهما، وتسهّل عليهما عملية التربية والتوجيه.

قد كان من أمر هذه السيدة أنها اقتربت بعد انتهاء المحاضرة لكي تحدثني عن مدى استمتاعها بقراءة المجلات النسائية، والتي حسب رأيها لا تخلو من فائدة ولا تفتقد إلى المعلومة والخبر المثير.

وحين أوضحتُ لها بأن المجلات التي تتحدث عنها لا تكفي لتصنع قارئاً جيداً، ومربياً محترفاً في التعامل مع الأبناء، بل لا بد

أن يتزامن مع تلك المطبوعات قراءات مكثفة لموضوعات متنوعة ترفع مجتمعةً درجة وعي الفرد، وتصحّح لديه بعض الأفكار التي ربما تلقفها من هنا وهناك ولا يملك بياناً شافياً لها، أجابتني قائلة: قد يكون كلامك صحيحاً لكنني لا أطيق مطالعة الكتب، ولا أستطيع أن أُبقي الكتاب في يدي أكثر من خمس دقائق، إن قراءة المجلات الخفيفة وحدها هي ما أجد فيها متعة القراءة، أما الكتب فهي ثقيلة على نفسي، وأشعر بالملل كلما نظرت فيها!!

إذا كان ثمة تعليق على هذه المحادثة التي باتت قرينة تلازم الحوارات المفتوحة مع جيل الكبار، فإن ما يمكن تسجيله لن يتخطى تلك الدعوى التي أطلقها النابهون منذ زمن على انخفاض الدافعية نحو التعلّم المستمر، والهروب الفردي والجماعي من مزاولة القراءة الواعية المستقاة من منابع غزيرة من شأنها تغذية الفكر وتنمية الشعور، وتحفيز الشخصية للسير الصحيح وفقاً لمعطيات الثقافة الجادة، وتناغماً مع الأفكار العليا المتولِّدة من الذات الواعية وليس من الذات السفلى غير المدركة بعواقب الأفعال والأقوال.

ولو تابعنا تحليل هذه الواقعة التي لها شواهد تستعصي على الحصر، واتخذنا من طريقة تفكير هذه السيِّدة التي اقترب عمرها من الثلاثين عاماً مثلاً على جيل الكبار الذين يشاطرونها المشاعر السلبية ذاتها تجاه الكتب والمطالعة المتعمقة، حتى لكأنهم

يعانون من فوبيا القراءة التي تغشاهم رغم أنوفهم وتجرهم بعيداً عنها، فسوف نقف على مقدار الهدْر في سنوات العمر الذي يقترفه أفراد هذه الفئة مما يهدّد بتكريس الأخطاء وتصدير المفاهيم المغلوطة.

وعلامة التعجب التي ترتسم في ذهن الراصد لهذا التآكل والنحت والاختيار غير الواعي لنمط الحياة في رحاب المعرفة القليلة، والثقافة الضحلة؛ تدفعنا لنطالب بجدِّية تامة كل من لديهم سلطة أدبية ونفوذ مادي أن يساهموا بإطلاق برامج لتدريب الكبار على مزاولة المطالعة المركزة والمنهجية، على غرار ما لدى مؤسسات تعليم قيادة السيارات، أو الدراجات أو حتى الطائرات من برامج تدريبية تعمد لتخريج كوادر تجيد القيادة، وتملك القدرة على التحليق في الأجواء.

أقول هذا الكلام وأنا مسؤولة عنه، إذ يخطئ من يظن أن من ناهز الثلاثين أو الأربعين أو ما بعدها دون أن تكون المطالعة جزءاً من برنامجه اليومي، سوف يسهل عليه الالتزام الجاد بقضايا التعلم المستمر.

نعم قد تبدو في لحظة انفعال زائد أو حماس خاطف بعض المحاولات لالتقاط الخيط وتعويض ما فات، لكن سرعان ما تنهار تلك المحاولة ويسقط ذلك الادعاء.

ولستُ فيما أقول متجنية على الحقيقة العلمية التي تؤكد أن بناء العادات يحتاج إلى قوة إرادة وصبر وتحمل حتى تستقر في العقل الباطن، وتمارَس طوعاً لا قسراً ومغالبة.

كما أن استقراء الواقع واستنطاق الصور المتواترة لا تخرج أبداً عن هذا الرأي، فكم جرت من محاولات بدت جادة لكنها سرعان ما تبخرت وولت إلى غير رجعة، وما أثقل الشعور بالمرارة وما أوجع الإحساس بالفشل!!

صدقاً نحن بحاجة إلى أكثر من مؤسّسة وأكثر من وسيط ثقافي، ليتبنى برامج تُعرّف الكبار على أصول القراءة الواعية، وترتقي بهم درجات سلم المعرفة، من المستوى الأدنى إلى الأعلى، أملاً بمحو الأمية الحضارية، وخلق مناعات ذاتية تجدد للفرد نظرته إلى الأمور، وتقوّم لديه تجاربه وتجارب من سواه، وفقاً للنظرة المتأملة التي تصنعها المعرفة، ويؤسّس لها الجهد التعليمي المكثّف.

هذا التكثيف في مستوى المواد المقروءة ستقابله كثافة في التفكير، ومرونة في التحليل ونمو في الشخصية، وكلها مكاسب حضارية يجب الاهتمام بامتلاكها(١).

(١) يعالج كتاب تعليم التفكير مفاهيم و تطبيقات، للباحث فتحي جروان موضوع تطوير الكفاءة الذهنية ١٩٩٩م، دار الكتاب الجامعي، الإمارات العربية المتحدة.

و.. هزيمة نسائية مدوية

تقودنا موضوعات هذا المبحث لنقف مع طبقة من هواة المطالعة، ممن توقفت خبرتهم بالكتاب إلى مستويات متواضعة،لم تؤهلهم للسير أشواطاً تالية في رحلتهم مع المعرفة، مما ساهم في غياب كثير من المفاهيم الحضارية عنهم وحرمهم من مزايا القراءة الواعية التي ينعم بها أهل الخبرة والدراية من القراء.

وتمثّل النساء ـ مع الأسف الشديد ـ غالبية هذه الشريحة، كما تمثل كتب تفسير الأحلام الاختيار الأول لأعضاء هذه الفئة.

بإلقاء نظرة عامة على معارض الكتب، تلتقط العين أكثر من مشهد سلبي يؤكد انجذاب النساء إلى هذه النوعية من الكتب، التي يختلط فيها الحق بالباطل بشكل كبير، ناهيك عن كونها تدل على سطحية تفكير تلك الفئة من النساء الحريصات على امتلاك هذه النوعية من الكتب، دون غيرها من المصادر القادرة على دعمها، وإنجاح علاقتها بالقراءة، وإكسابها حصيلة معرفية هي في أشد الحاجة إليها.

ما يبعث على القلق من تمدّد هذه الظاهرة هو نشوء قناعة بصدقية ما تزخر به تلك الكتب من تفاسير، إلى درجة قد تصيب المرأة بحالة من الخوف والذعر فيما لو رأت حلماً أقلقها، ووجدت

في كتاب تفسير الأحلام الذي تعكف على قراءته ما يؤكد لها صدق مخاوفها، الأمر الذي يدخلها في دائرة من الأحزان والهموم لا قبل لها بها[١].

ومما يزيد الطين بِلَّة رؤية من يشجع المرأة على هذا السلوك السلبي ويعزز لديها الرغبة في معرفة الغيب، وفي التكهن بما سيحدث في المستقبل من خلال برامج التلفزيون التي تعرض لتفسير الأحلام، أو تتحدث عن الأبراج الأمر الذي يكرس لسياسة إضعاف فاعلية المرأة وإفقارها من مصادر المعرفة العلمية، ويمهّد لمزيد من التقبل للخرافة والأكاذيب إلى درجة تدعو للرثاء وتبعث على الألم!!

ومع مرور الأيام وإدمان مطالعة تلك الفئة من النساء لهذا النوع من الكتب، أو المواظبة على مشاهدة ما يعرض على التلفاز، أو قراءة ما يظهر في الصحف من موضوعات حول هذا الجانب، يصبح تمرير أي أفكار سطحية أو دعوات هجينة لتقليد الآخرين،

---

(١) في محاولة جادة للإحاطة بواقع القراءة في عالمنا اليوم أهدت الدكتورة لطيفة الكندري المستشارة المحلية للمركز الشبه الإقليمي للطفولة والأمومة، بدولة الكويت المكتبة العربية كتابها "تشجيع القراءة"، وتعد تجربتها في جمع مادة هذا الكتاب وتصنيفه نموذجاً يمكن الاحتذاء به لتأسيس واقع ثقافي جديد تكون فيه القراءة العمود الفقري للنشاط اليومي للكبار والصغار على حد سواء.
الدكتورة لطيفة تحمل درجة الدكتوراه في الأصول والإدارة التربوية من **جامعة بنسيلفينيا ستيت** في الولايات المتحدة الأمريكية عام ٢٠٠١م وهي عضو في هيئة التدريس بكلية التربية الأساسية بجامعة الكويت.

أو تسيير المرأة باتجاه القبول بنمط معيشي معين، أو تحديد اهتماماتها والسيطرة على تلك الاهتمامات أمر في غاية السهولة. فالمناعات العقلية الذاتية منهارة، والحصانة الروحية في أضعف حالاتها، والمفاهيم الإيجابية حول الذات والإمكانات الشخصية غائبة تماماً عن هذه الفئة من الفتيات والسيّدات، إلى جانب التعود على حياة الكسل والخمول، وتعطيل مهارات التفكير، إضافة لانتفاء القدرة على نقد ما يقال ويسمع، والإعجاب بما تقدمه العروض الإعلامية الغربية، كل ذلك يؤدي في النهاية إلى إبعاد المرأة المسلمة عن ممارسة أدوارها الإيجابية في الحياة، بل يؤدّي بها إلى الجهل بتلك الأدوار ومعرفتها على وجهها الصحيح، كما يقلل من حماسها في المشاركة لبناء مجتمعها، ويجعلها على هامش الحياة!!

إن المحصلة النهائية لاحتراف متابعة تلك المواد المكتوبة أو المرئية تدل دلالة واضحة على أن عقل المرأة المسلمة مخترَق من المروِّجين للعبث، الأمر الذي يحتم أن تعمل الكفاءات العلمية والإعلامية على إصلاح هذا الخلل، وتدارك هذه الظاهرة قبل أن تستفحل وتجتاح في طريقها عقولاً كان يمكن استثمارها في النهوض بالواقع، لبناء حياة تحترم العلم وتنبذ الخرافة[١].

(١) للمفكر الإسلامي الراحل الشيخ محمد الغزالي نظرات ثاقبة في تربية المرأة، ولإلقاء بعض الضوء على فكره المميز، اقرأ: "تربية المرأة من منظور الشيخ محمد الغزالي" / د. لطيفة الكندري، د. بدر ملك.

www.geocities.com